﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾ [الحديد: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تـوبـيـخ عـلى الإعـراض بعد البيان والدَّعوة للإيمان

لَمّا أمرهم اللّهُ سبحانه بصريح الإيمان في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أتبعه تعليقًا بتَوْبيخِهم على ترك ما أُمِروا به، مبيّنًا أنّه لا معذرة لهم في التّولّي والإبعاد، فقال مُنكِرًا عليهم تعطّلهم عن الحقّ: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؟! والمعنى: فأيّ عذرٍ يعقدونه، وأيّ حجاب يحجبهم وقد تنحّت العوائق، وانْجَلَتِ الشّبهات؟ وحقيقة القول: ما الذي أبقاكم في حظيرة الكفر، وأيّ نصيب لكم من ثواب الآخرة إذا أنتُم أبَقْتُم من رحابِ الإيمان؟[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشّيء وجَبْيُه وجَمْعُه[2]، ومعنى ﴿أَخَذَ﴾ في الآية الكريمة: حين أخْرَجَكُم من ظهر آدم بأنّ اللّه ربّكم لا إله غيره، وقيل: أخذ ميثاقكم بتركيب العقول فيكم، ونصب الأدلّة التي تدعو إلى اتّباع الرّسول[3].

2) ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: الميثاق مِفْعالٌ مِن الوِثاق؛ وهو العهد، وهو في الأصل: حبلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأسير أو الدّابة[4]، يُقال: وثَّقت الشّيء؛ أي: أحكمتُه، ووَثِقْتُ بِهِ أثِقُ ثقةً: سكَنْتُ إليه، واعتمدتُ عليه، وأوثَقْتُه: شَدَدْتُه[5]، والمواثقة: المعاهدة، والوثيق: الشّيء المحكم،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 442.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 247.
(4) ابن الأثير، النهاية: (وثق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).

واستوثقت منه؛ أي: أخذتُ منه الوثيقة[1]. ومعنى ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ في الآية "عَقدٌ يؤكَّد بيمين وعهدٍ... وقد أخذ اللّهُ ميثاقكم بالإيمان من قبل دعوة الرّسول إيّاكم إليه"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريع الغافلين عن نور الهدى بين الحُجَّة البالغة والعهد الموثوقِ

آيةٌ ناطقَةٌ بتَقْريعِهم على تقصيرهم، وتعجُّبِهم من تَواريهم عن ضياء الهدى، وهُم بين أسبابهِ وأدلَّتِهِ، فليس لتولّيهم مع ذلك من معقِلٍ يلجؤونَ إليه، ولا من عُذْرٍ يحتجّون به، بل هم في عرض الملام، وموقف المأثم؛ إذ لو أسلموا وجوهَهُم لَنالوا فَضْلَ الدّنيا وثواب الآخرة، فـ" أيّ: شيء لكم في تَرْككُم الإيمانَ بالله وبرسوله، وما أتاكُم بهِ مِنَ الحَشْر والنّشر، وقد أزاحَ العلّة بأنْ ألاحَ لَكُم الحجّة، وقد أخذ ميثاقَكُم وقْتَ الذّرّ، وأوجب عليكم ذلك بحكم الشّرع"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

استئنافٌ يَكْشِفُ دهشَةَ الإنكارِ ويُزيحُ عُذْرَ الجاحِدين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ دالّة على الاستئناف[4] الذي يُلفت النّظرَ إلى حال المخاطبين والعجبِ مِن مَوْقِفِهم، والمعنى: فما شأنُكُم أيّها النّاس، وما الذي يُثْنيكُم عن الإيمان بالله؟ ورسولُهُ الكريم محمّدٌ ﷺ لا يزال يدعوكم إلى توحيدِ الله تعالى والإقرار بربوبيَّته، وقد جاءكم مِن البراهين والأدلَّةِ السّاطعة، فلا يبقى لمكابرٍ حجَّةٌ، ولا لمتردِّد عذرٌ[5].

الغرَضُ من التَّعبير بالاستفهام بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾:

توبيخُ المُعانِدين بِعَمى بَصائِرِهم

الاستفهام بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

(1) الجوهري، الصحاح: (وثق).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 354.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 535.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 169.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 172.

توبيخ يُقذف في وجه المعرِض، وتعجيبٌ يُصوّر قُبْحَ حالِه، واستغرابَ موقفه؛ إذ كيف يُتصوّر الامتناع عن الإيمان، وقد انكشفتِ الحُجج، وتجلّى البرهان؟! فهو استفهام يحمل في طيّاته تقريعًا خفيًّا، واستنكارًا بالغًا، يناسب ما في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من معنى الطّلب، لا مجرَّد الإخبار عن الدّوام في الإيمان[1].

ويجوز في الاستفهام هنا أن يكون على معنى الإنكار، والمعنى: فَلِماذا لا تؤمنون بالحقّ سبحانه، وقد بدت لكم آياتُه، وتتابعَت عليكم نِعَمه، وأيّ شيء يبقى لَكُم مِنَ الأمل في الثّواب، أو الحظّ من النّجاة[2]، إذا أعرضتُم عن الإيمان بالله؟.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

الإنكار دالّ على التَّمكّن، ودليل على سبق الاستطاعةِ واختيار العبد للإيمان

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ دالّة على الاختصاص والتّمكّن، والمعنى يشير إلى أنّ المخاطبين قادرون على الإيمان؛ إذ لا يوجَّه مثلُ هذا الإنكار إلّا لمن كان مُتمكّنًا من الفعل، كما لا يُقال: ما لَكَ لا تَطْوَل، أو لا تَبْيَضُّ، لمن لا يملك ذلك، وهذا يدلّ على أنّ الاستطاعة متقدّمة على الفعل، وأنّ القدرة صالحةٌ للفعل وضدّه، وأنّ الإيمان واقع من العبد باختياره[3].

دلالة توجيه الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

أيّ عذر يبقى لِمَنْ أعْرَضَ عن الإيمان بعدَ وضوح الحُجَج وقيام البراهين

الخطاب في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تقريع وتوبيخ لهم، وخطابُ الحُضور هو الأوْلى بمِثْلِ هذا السّياق، كأنّه يقول: أيُّ عذر لكم في الإعراض عن الإيمان بالله تعالى، وقد دعاكم الرّسولُ ﷺ، وأُقيمت عليكم الحُجَجُ السّاطعة، وجاءَتْكُم الآياتُ البيّنات التي تَرْفَعُ كُلَّ عُذْرٍ، وتدفَعُ كُلَّ شبهة؟ فأيّ وجهٍ بَقِيَ لَكُم لِتَرْكِ الإيمان؟[4]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 369 - 370.
(2) الواحدي، الوسيط: 4/ 245.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 516.

سرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة المنْفيَّة ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾:

توبيخُ الجاحِدِ وكَشْفُ زَيْفِ الظّاهِرِ عندَ المُنافق

جملة ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ حالٌ[1] من ضمير المخاطبين، والتَّقدير هنا: وما لكم كافرونَ باللّه؛ أي: ما الذي أصابَكُم أو حلَّ بكم وأنتُم على حالٍ مِنَ الكُفْرِ باللّه؟[2]. وسرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة المنفيَّة الدّلالةُ على إمكان تغيّر الحالِ لوجود أسبابِه؛ ولذا عُبِّر بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد، ويتبيَّن ذلك لو قيل: مالكم غيرُ مؤمنين؛ فكان إشارةً إلى إمكان حصول الإيمانِ. فالجملةُ تحملُ في طيّاتها استبطاءً عجيبًا واستغرابًا بليغًا، خَرَجَ مخرج الإخبار بزوال المانع وانتفاء العذر، والمعنى: فأيّ سببٍ بَقِيَ لكم في الإعراض، وأيّ حُجّة تعتذرون بها عن ترك الإيمان، وقد نُصبت لكم الأدلّة، وتتابعت عليكم الآياتُ التي تقرع الأسماع وتخاطب العقول[3]. ونفيُ الإيمانِ يحتَمِلُ أن يكون توبيخًا للمشركين على شِرْكِهم الصّريح، كما يَحْتَمِلُ أن يكون تعريضًا بالمنافقين الذين أظهروا الإيمانَ وأبْطَنوا الكفر[4]، فجاء النّفيُ شاملًا للحالَيْنِ، ليوبّخ الجاحد، ويَكْشِفَ زيف الظّاهر عند المنافق.

دلالَةُ التّعبير بالاسم الأحسَن (الله) مُظْهَرًا دون إضمارِه:

في الاسمِ الأحسَنِ دلالةٌ على المَلِكَ الأعلى وبيانٌ للحقّ الأجلى

التّصريح بالاسمِ الأحسَنِ (اللّه) في الآية الكريمة دون إضماره؛ فيه تربيةٌ للمَهابة والجلال، وإشارةٌ إلى كونه الملكَ الأعلى الذي له الملك كُلُّهُ والأمر كلُّه، وهي حقيقةٌ يَزْدادُ بيانُها وضوحًا في ذهن السّامع بعد تلقّي الحجج والبراهين السّابقة لهذا النّداء الإيمانيّ[5].

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾:

بيانُ حالِ الرّسول ﷺ وهو يدعوهم للإيمانِ وهم مُعْرِضونَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ واوُ

(1) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 716.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 11/ 290.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 155.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.

الحال، والجملة بعدها حالٌ من الضَّميرِ في ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾[1]؛ أي: لِمَ لا تؤمنون والرّسول محمّدٌ ﷺ يَدْعوكُم إلى الإيمان باللّه، والإقرار بوحدانيَّته، فالحالُ كونُكُم مدعوّين إلى الإيمان[2].

بلاغة التّعبير بالجملة الحاليَّة في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ تتجلّى بلاغة الجملة الحاليَّة؛ إذ تُصوّر حالًا قائمةً تفضَحُ العِناد، وتكشِفُ مكابرَةَ القلوب، فالدّعوة قائمَةٌ، والرّسول بيْنَ أظهركم يُناديكُم إلى الإيمان بربّكم، ويُتلو عليكم من آيات المولى سبحانه ما فيه بلاغٌ كافٍ، وحجّة قاطعة، تدحض الشّبهة، وتقطع المعذرةَ، فما المانع إذن؟! إنّه العناد مع حضور البرهان، والمكابرة على الرّغم من وضوح الحقّ[3]. ودعوةُ الرّسولِ الواقعةُ حالًا جاءتْ توبيخًا لهم على كفرهم مع قيام ما يوجب الإيمانَ ويدعو إليه، بعد أن وقع التّوبيخُ أوَّلًا على مجرّد ترك الإيمان، فكيف يُستساغ الإعراض، والرّسول بين أظهركم يدعوكم، ويُنبّهكم، ويقيم عليكم الحجّة؟! فأيّ عذر يبقى بعد ذلك؟[4]. وهذه الدّعوة فيها إيحاء بليغ على استبعادِ تَرْكِ الإيمان مع قيام موجبه الأقوى؛ فإنّ صَدْعَ الرّسول ﷺ بالدّعوة، وظهورَ آياتِ نبوّته الباهرة[5]، ممّا لا يدع في النّفس ريبًا، ولا في العقل شبهة، فكيف يُتَصَوَّرُ بعد ذلك الإعراض، وقد اجتمع السّبب الظّاهر والبرهان القاهر؟!.

دعـــــوةٌ مـن الـرّسـول ﷺ لا تَنْقَطِعُ، ومكابرة وعنادٌ لا يَخْضَعُ

سرّ التّعبير بقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ معرّفاً بـ (أل):

اللّام في لفظ ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ للعهد العلميِّ؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى

الرّسول المعلومُ يُكرّر النّداءَ، فليس بعد البيانِ إلّا الجفاءُ

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 454.
(2) الكرماني، غرائب التفسير: 2/ 1184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 442.

الرَّسول المعهود المعلومِ لديكُم، المعروف بينكم بصفاته وأمانته ودعوته. وكأنَّ المعنى: والرَّسول الذي لا تجهلونه، صاحبُ الدَّعوة الظّاهرة، يدعوكم دعوةً متكرِّرة إلى الإيمان بربِّكُم[1].

دلالة التّعبير بالدّعاء في قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ مادّة وصيغة:

نداء متكرّر من هادٍ مطهَّر؛ قد حفّته الآيات وزكّته السّمات

جاء التّعبير بالفعل ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ للدّلالةِ على تلاوة "الكتاب النّاطق بالبراهين؛ ليجمع بين دليلَي النّص القاطعِ والعَقْلِ الهادي"[2]. وجيءَ به مضارعًا للإفصاحِ عن نداءٍ متكرّر، لا يفتر صباحًا ولا مساء، ودعوةٍ لا تنفكّ عن الرَّحمة، تَصْدُر ممَّن هو أحقّ بالقبول: مَنِ اكتملَت في شخصهِ أسبابُ الهداية، وظهرت على يديه الآياتُ الباهرات، وحَسُنَ سمتُه، وعظُم قَدْرُه[3].

معنى اللّام ودلالتُها في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُواْ﴾:

دعوة الرّسول إلى الإيمان: فتْحُ باب الرّضوان والجنان لَكُمْ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ لإفادةِ التّعليل؛ فهي دعوةٌ إلى الإيمان بربّكم لتفوزوا بما وراءه من رضوان وجنّة وغفران، فالإيمانُ هوَ سبيل النّجاة[4]، ومفتاح الرّحمة، ورسولُ الله ﷺ هو الدّاعي إلى هذا الخير العميم، والبشير بمغفرة لا تُردّ لمن أجاب. ويجوز في اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ أن تكون مفيدةً انتهاءَ الغاية بمعنى (إلى)؛ أي: لتصلوا بإيمانكم إلى ربّكم[5]، فليست الغايةُ مجرّدَ الإقرار المستلزمِ للإذعانِ، بل التّوجّه القاصد، والسّير الحثيث نحو مرضاة الرّبّ، فكأنّ الإيمان طريق موَصِّلٌ، ومنهج متَّصِل.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 442.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 233.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 236.
(5) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 354.

معنى الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾:

ملابسة الإيمان بربّهم ومصاحبتُه دليلُ الإذعانِ الكامل

الباءُ في قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ تحتَمِلُ أن تكون على معنى المصاحبة والملابسة، وهو من أبلَغِ معانيها وأشهرها[1]، فتجيء لتدلَّ على أنّ الإيمان المطلوبَ ليس مجرّد تصديق عابرٍ، بل صلة وثيقة، ومخالطة روحيّة، ولباس لا يُخلع، وفي ذلك استدعاءٌ للإذعان الكامل، والاندماجِ الوجدانيّ، والاتّصال العميق بين العبدِ وربّه.

سرّ العدول عن الاسم الأحسَنِ (الله) إلى اسم الرَّبِّ في ﴿بِرَبِّكُمْ﴾:

من الألوهيّة إلى الربوبيّة: لطفٌ وتشريفٌ وبه للأمّة عزّ وتعريفٌ

عُدِلَ عن الاسم الأحسن (اللّه) إلى التَّعبير بصفة الرّبوبيَّة في قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كان الرَّبُّ هو السيّدَ المتكفّل بالتَّربية والهداية، وقد أحسن إليكم حينَ جعلَكُم من أمَّة هذا النَّبيِّ الكريم ﷺ وشَرَّفكم باتِّباعه[2]؛ عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبير بالاسم الأحسَن (اللّه) إلى لفظ الرّبوبيَّة ليُذكّرهم بأفضاله، ويستحضر معاني الرِّعاية والتَّربية والتَّوجيه، بما يناسب مقامَ الدَّعوة والامتنان.

غرَض الإضافة في قوله: (ربّكم):

دعوةُ قربٍ ووصالٍ، وفي الإضافةِ تحبيبٌ ودَلالٌ

أُضيف لفظُ الرّبّ إلى المخاطبين إشارةً إلى أنّه هو الذي تولّى أمرهم، وتعهّدهم بالرّعاية منذ النّشأة، وأحسن تربيتهم، وأرشدهم إلى سُبُل الهداية، وقام على شؤونهم، فهو السّيد والقيّم والمربّي والمرشد. وفي هذه الإضافة ترقيقٌ في الخطاب وتَلْيينٌ في الطّلب[3] حتّى يصبح أكثر قربًا وأشدّ تأثيرًا، كأنّه يذّكرهم بهذه الصِّلة الوثيقة، والنّعم الجسيمة التي تستوجب الشّكر والإذعان، فيأتي نداءُ الإيمان مغلّفًا بهذا اللّطف، مُحمّلًا بذكرى الإحسان.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 140.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 229.

سِرُّ التَّقييد بالجملة الحاليَّة ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾:

حال الدّعوة إلى الإيمان بعد أخذ الميثاق ونصب الأدلَّةِ

الجملة من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ في موضع الحال[1] أي: يدعوكم إلى الإيمان، والحال أنّ الله سبحانه قد أخذ ميثاقكم عليه من قبلُ، وذلك بما نصبَهُ لكم من الأدلَّةِ، وما منحكم من أدوات النّظر والتّأمّل[2]، فالدّعوة قائمة على ميثاق سابق، وحجّة ساطعة. ويجوز أنّ اللهُ سبحانه قد ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حينما أخرجكم من صُلب آدم ﷺ، آخذًا عليكم العهد الأزليّ بأنّ الله ربّكم، لا إله لكم سواه[3]، فجاءت الحال لتستدعيَ مشهدَ الميثاق الأوّل، وتُذكّرَ النّفوس بما وُقِّع في عالم الذّرّ من إقرار ربانيّ.

دلالة دخول (قد) على الفعل الماضي:

تأكيد الميثاق الإلهيّ، وتوبيخٌ بحقيقة ماضيةٍ لا مفرّ منها

دخول (قَدْ) على الفعل الماضي يُفيد التَّوكيد والتَّحقيق[4]، والوارد في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ فيه تنبيه على أنّ أخذ الميثاق أمرٌ ثابت لا شكَّ فيه، وأنَّهُ واقع لا محالة، يُحتجّ به عليهم في مقام التّوبيخ والإنكار، فالآية تُذكّرهم بحقيقة مؤكّدة سبقت دعوتهم؛ ليزداد وقْعُ الخطابِ في نفوسهم.

دلالة التّعبير بالأخذ مادّة وصيغة:

أخذُ الميثاق حجّة وإشهادٌ؛ فلا عذر لمَنْ عنهُ قَد حاد

التّعبير بلفظ ﴿أَخَذَ﴾ تشير إلى تحقّق الفعل وثبوته، فهو أخذٌ واقع لا شكّ فيه، فصار من أعظم ما يُسْتَنْكَرُ تركُه، والإعراض عنه؛ لِما اقترن به من وجوهِ التّوثيق، كإقامة الحجج، ونصب الأدلَّة، وهو متّصل بأخذ الميثاق الأوَّل من ذريَّة آدم ﷺ، وإشهادهم على أنفسهم، وإشهاد الملائكة عليهم[5]، فكيف يُترَك بعد كلّ ذلك؟.

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 10/ 236.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 205.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 27.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 433.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 264.

سرّ التّعبير بالميثاق دون العهد في قوله: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

الميثاق أوكَدُ مِنَ الحَلِفِ وأبلَغُ من القسم واليمين

عُبِّر بالميثاق دون العهد في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾؛ لأنّ الميثاق في لغة العربِ أقوى من العهد، بل يفوقُ الحَلِفَ واليمينَ توكيدًا[1]، وقد اختير هنا للدّلالة على عِظَم ما أُخذ عليهم؛ وهو ما نُصب في العقول من أدلَّة الفطرة، والبراهين العقليَّة الموجبة لتصديق دعوة الرّسل، وهي أدلَّةٌ راسخة في الأفهام، قاطعة في الحُجج. وعُبِّرَ "بلفظ الميثاق دون العهد في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾؛ لأنّ الميثاق هاهنا ليس عقدًا متبادلًا بين طرفين متكافئين، بل هو ميثاقٌ مِنَ اللّه تعالى أودَعَهُ في الفطرة لا بطريق الخطاب اللّفظيّ، بل بالخطاب التّكوينيّ؛ إذ ألقى في جبلّة كلّ نسمة شهادةً فطريّة بوجوده ووحدانيَّته، قبل أن تُكلَّف بالعقل[2]. "وقد اختير فعلُ الأخْذِ لإفادة الجزم والإلزام[3].

غرض الإضافة في قوله: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

الميثاق عهد عليكم، والوفاء به لازم لديكم

أُضيف الميثاق إلى ضميرِ المخاطبين مواجهةً لَهُم و إلزامًا، فهم أصحابُ العَهد والمَعْنيّين به، والعُرف يقتضي نسبةَ الميثاق إلى من وقع عليه الالتزام؛ ولذا أضيفَ إليهم، فالميثاق يُضاف إلى المعاهِد – بكَسْرِ الهاء – [4]؛ فهو الذي قُيّد بالعهد، والتزمَ بِمَضْمونِهِ.

تنوُّع القراءات في قوله: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

جلال الخطاب في غيابِ المُخْبِرِ: توبيخ أشدّ ووقع أهْيَبُ

في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ قراءتان؛ إحداهما: قراءة الجمهور ببناء فِعْلِ الأخذ للفاعل، ونصب الميثاق. وقرأ أبو عمرو البصريّ بالبناء للمفعول ﴿أُخِذَ﴾؛ فيكون الميثاق مرفوعًا ﴿مِيثَٰقُكُمۡ﴾[5]، والآخذ على كُلٍّ هو اللّه تعالى، وهو الذي تولّى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 443.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 443.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 384.

الأَخْذَ ساعةَ الإخراج من صُلب آدم. ووَرَدَ الفِعْلُ على هذه الصّيغة لما فيها من شدّة التّوبيخ، وإغلاظ الخطاب؛ إذ توحي بأنّ الفعل قد نُفّذ قهرًا دون تسميةِ فاعله، فيكون أوقعَ في النّفس، وأشدّ هيبة، كما جاء في نظيره من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]، فالصّيغة تُحمّل المأمور ثِقَلَ التّكليف وجلالَهُ، كما تقول: افعلْ كما قيلَ لك، فهو أبلغُ مِنْ قولِكَ: افعلْ ما قلتُ لكَ[1].

بلاغة التّعبير بالمجازِ في قوله: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾:

تمثيلُ حالِ مَن قامَت عليه الحُجَجُ والبراهينُ

قوله تعالى: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ من باب المجاز؛ إذْ ليسَ الأخذ هنا على حقيقتهِ الحسّيّة، وإنّما هو تمثيلٌ لحالِ مَن قامَت عليه الحُجَجُ البيّنة، وتجلّت له آياتُ اللّه الواضحة، فصار علمُه بالحقّ، وثبات الدّليل في قلبه، بمنزلة عهدٍ وميثاقٍ مأخوذٍ مِنْهُ[2].

دلالةُ تخالُفِ الفعلَيْنِ مضارعًا وماضيًا في الآية:

الإشارةُ إلى تجدُّد الدّعوة وتحقُّق الميثاقِ

جاء التّعبير عن فعل الدّعوة بصيغة المضارِع، وعن أخذ الميثاق بصيغَةِ الماضي؛ لإفادةِ التّجدُّد في الأوّل، وإفادةِ التّحقُّقِ في الآخَرِ؛ إذ الرّسول ﷺ يدعو الأمّةَ دعوةً مستمرّةً لا تنقطِعُ، فكان التّعبيرُ بالمضارِعِ أنسبَ؛ لدلالتِهِ على الاستمرارِ التّجدُّدي، بخلاف أخذ الميثاقِ؛ فقد وقع في عالَمِ الذَّرِّ وانقضى، فكان التّعبيرُ بالماضي أنسبَ لدلالَتِه على التّحقُّقِ.

سرّ التّرتيبِ بين دعوةِ الرّسول وأخذ الميثاق:

تشريف الرّسالة لجلالها، وإن سبقَها الميثاقُ في زمنها ومقالِها

جمع في الآية بين دعوة الرّسول: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ وأخذ الميثاق: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾؛ لأنّ كليهما شرطٌ أساسٌ في توبيخهم على ترك الإيمان[3]، وهو جمع يَحْمِلُ توبيخًا مركّبًا، يتضاعَفُ أثرُه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 234.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 450.

بتلاقي الدّليلين؛ وهما الدّعوة القائمة الحيّة من الرّسول، وميثاقٌ سابق معقود، فاجتمعت الحجّة الظّاهرة والدّعوى الباطنَة.

وفي تقديم قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ على قوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾، مع أنّ أخذ الميثاق سابقٌ على دعوة الرّسول، إنّما هو من باب تقديم دليلِ السّمع على دليل العقل، تشريفًا للرّسالة وتعظيمًا لمنزلتها[1]؛ إذْ إنّ دعوةَ الرّسول تمثّل النّداءَ المباشر بالحجّة البيّنة، والبيان الظّاهر، فكانت أولى بالتّقديم، لا لسَبْقِها في الزّمان، بل لعلوّها في المقام.

سرّ إضمار الفاعلِ في قوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

أُضْمِرَ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾، وهو عائد إلى الاسم الأحسن (اللّه) في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تنبيهًا على أنّ الآخذ للميثاقِ هو اللّهُ تعالى دون سواه، في موضعٍ يُعلى فيه جلالُ الفعل عن التّصريح بالفاعل؛ إذ المقامُ مقامُ تذكيرٍ بعهد ربّانيّ مغروس في الفطرة، فلو لَم تُطْمَسِ البصائرُ بعِنادٍ، أو تُلفّع بالغواشي من تضليل أئمة الكفر؛ لانساقت النّفوس عفويًّا إلى الإيمان بوجود الخالقِ ووحدانيّته، وقد جاءهم من نور دعوة الرّسول ﷺ ما يكشف الحُجُب، ويوقظ المُدْرَكاتِ من سُباتها[2].

إذا زال العنادُ؛ نطقت الفطرة بوحدانيَّة اللهِ سُبحانه

دلالةُ تعقيبِ الإنكار بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

أورد النَّظم الكريم جملةَ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ عَقِبَ الإنكارِ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتكون بمنزلة تحقيق المناط، وتثبيتِ الحجّة؛ أي: إن كنتُم حقًّا تَعْتَزِمون الإيمانَ، أو تدّعون الرّغبة فيه؛ فكيف يُعقل أن تُعْرِضوا عنه، وقد اجتمَعَت دواعيه وتظاهَرَت براهينُه؟ فالميثاقُ مَرْكوزٌ في فِطْرَتِكُم، والحُجَجُ قائمَةٌ في عُقولِكُم،

إذا كان من الإيمان دواعي الاجتماع؛ فليس على النّفوس الامتناع

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 233، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.

والدّعوة قائمة على لسانِ رسولٍ مشهودٍ له بالصّدق والأمانة، فدلّ الخطابُ على عموم الحجّة، موجّهًا للمؤمن وغير المؤمن[1].

سرّ فصل جملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ عمّا قبلَها:

دعـــــوةٌ إلى الإيمان بسطوع الحُجَج، ونُطْقُ الأعـلام بنبوّة خير الأنام

وقعت جملة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موقعَ الاستئناف[2]؛ إذْ هي ابتداءُ كلامٍ جديدٍ، لا تعقيب مباشر على ما قبلها، جاءت لتوقِظَ الضّمير وتستنهضَ البصيرة؛ فهي دعوة إلى الإيمان الحقّ، لا محض ادّعاء، بل بإيمانٍ راسخ بحقيقة الإسلام، وتصديق جازم بنبوّة المصطفى ﷺ، وقد قامت على ذلك البراهينُ السّاطعة، والأعلام الواضحة[3]، فلا عُذْرَ لمُكابِرٍ، ولا حجّة لمُنْكِرٍ.

دلالة التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيَّة:

شـرطُ الإيـمـانِ تعليلٌ للبيانِ وتوكيدٌ للبرهانِ

التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وارد مَوْرِدَ العلّة والسّببيَّة يجيء به الموثّق بأمره، المتحقّق بصحّته، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: 278]، فالكلام هنا مع المؤمنين إلّا أنّه جارٍ على طريقة التّوبيخ والتّقريع؛ لأنّهم مؤمنون حقًّا بدليل خطابِهم في صَدْرِ الآية بالإيمان[4].

دلالة التّعبير بفعل الكَوْنِ ﴿كُنتُم﴾:

بـيـانُ ثـبـاتِ الإيـــمـــانِ ورسوخِه

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن دُمْتُم على ما كان مِنْكُم من إيمان أوّل مرّة[5]، ففي فعْلِ الكَوْنِ ﴿كُنتُم﴾ إشعار خفيّ بالاستمرار والثّبات. وفيه استدعاءٌ للمُضيِّ على النّهج، وتنبيهٌ إلى أنّ الإيمان الحقّ ليس ومْضَةً عابرة، بل عهدٌ دائم، ومسيرةٌ

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 231.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 236.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 258.

لا تنقطع. فإنَّ اللّه تعالى لَمّا حثّهم على تجديد الإيمان على وجه الاستمرار، وجاء التعجّبُ من تركه مع وضوح موجباته، وكان كلّ منهم يدّعي الأصالةَ في الخير والسّبقَ إليه؛ جاء قوله: ﴿كُنتُم﴾ ليهيّج مشاعرهم، ويوقِظَ فِطْرَتَهُم، كأنّه يقول: إنْ كان الإيمانُ جِبِلَّةً لَكُم، ووصفًا راسخًا فيكم، فأين آثارُه؟ وأين وفاؤُكم بميثاقِهِ؟[1]

سرّ التّعبير بِاسْم الفاعل ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾:

بيانُ عراقَتِهِم في الإيمانِ وتَجَذُّرِهِم فيه

عُبِّر باسم الفاعل ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ دون الفعل في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأنّه مستعمل بمَعْنى الاستقبال، بدلالةِ وُرودِه في سياق الشّرط؛ أي: إن حَصَلَ مِنْكُم الإيمان بعد أن تهيّأت أسبابُه الظّاهرة بالأدلَّةِ والبراهين الظّاهرة والخفيَّة بما أودعه اللّه في الجِبِلَّةِ من فطرةٍ ناطقةٍ بالتّوحيد والتّصديق[2]. كما أنَّ التّعبير بالاسْم يوحي بالرّسوخ والثّبات في الوصف، كأنّما يُخاطِبُهُم بوَصْفِهِم أهلَ عراقَةٍ في الإيمان، متجذّرين فيه على نور الفِطْرَةِ الأولى[3].

الغَرَضُ مِن حَذْفِ جوابِ الشّرط:

(إن كُنتُم مُّؤمِنِينَ)؛ فدَعوا الجوابَ للعقل واليقين

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جملة الشّرط[4]، وجوابها محذوف، وحُذِفَ ليَذْهَبَ فيه التّصوّر والفكر كلّ مذهب، وآيةُ ذلك تقديرهُ بغَيْرِ مَعْنًى مِن لَدُن المفسّرين[5]؛ حيث يجوزُ تقديره على أوجهٍ، من مثل: فما يمنَعُكُم من الإيمان. أو لموجِبٍ ما؛ فهذا هو الموجب. أو فأنتُم في رتبة شريفة. أو إن كنتم عازمين على الإيمان؛ فهذا أوانه لِما ظهرَ لَكُم منَ البراهين والأدلَّةِ، أو غير ذلك مِنَ المعاني.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 370.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 265.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 463.
(5) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 234، ومكي القيسي، الهداية: 11/ 7309، والزمخشري، الكشاف: 4/ 473.

الغرَضُ من حذف متعلّق ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾:

أُطْلِقَ الإيمانُ؛ ليشمَلَ كُلَّ حجّة ويعمَّ كلَّ برهانٍ

حُذِفَ متعلِّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لإرادة الإطلاقِ والتّعميم، فجاء التّعبيرُ مُجملًا لا ليُبهم المعنى، بل ليُعمّق الدّلالة؛ إذِ المَقْصودُ: إن كنتُم تؤمنون بشيء لأجل دليلٍ وبرهان[1]؛ إذ يجعل كلّ دليلٍ سابق حجّةً عليهم، ويُقيم عليهم البرهان. ويجوز أن يكون الإيمان هنا مرادًا به القبولُ المستلزم للإذعانِ؛ فيكون حذفُ متعلِّقِهِ إشارةً إلى تعميمهِ وتوسيعِه، فكأنّما يُقال: إن كنتم من أهل القبولِ والإذعانِ على وجهِ الإطلاق، لا في مسألة بعينها، بل في كلّ ما يجبُ الإيمانُ به والإذعانُ لَهُ.

دفع توهّم التَّعارُض:

لا تنافي بين الإيمانَيْنِ؛ فإنّه تجديدٌ لِما ثبَتَ ودوامٌ عليهِ وازديادٌ مِنْهُ

لا تعارض بينَ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾؛ ذلك أنّ الخطاب في الآية يُبنى على اعتبارِ ثبات الإيمان الأوّل؛ أي: إن كنتُم لا تزالون على إيمانكم باللّه الذي أخذ ميثاقَكُم عليهِ وأنتُم في ظهور آبائِكم؛ فما الذي يَمْنَعُكُم من الإيمان بدعوة الرّسول، وهي دعوةٌ لا تزيد على تأكيد ذلك الإيمانِ ذاتِه؟ فكأنّ المعنى: إن كنتم مؤمنين باللّه حقًّا؛ فما بالُكُم لا تصدّقون رسولَهُ وتؤمنون بما يَدْعو إليهِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الميثاق والعهد:

الميثاقُ أخَصُّ مِنَ العَهْدِ

درجَ جمعٌ مِنْ أصحاب المعجماتِ على التَّسويةِ بينَهُما[3]، وأرادوا بذلك التَّقريبَ على عادتِهم في ذلك.

والتَّحقيق أنَّ بينَ العهدِ والميثاق فرقًا؛ وهو أنَّ أصلَ الميثاقِ: العهدُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 451.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 752.
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (وثق).

المؤكَّدُ[1] أو المؤكَّد بخصوص اليَمين[2]؛ وعلى كِلا الاحتمالَيْنِ فإنَّ العَهْدَ أعَمُّ مِنَ الميثاقِ مطلقًا، فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كل عهدٍ ميثاقًا.

ويدُلُّ لهذا الفرقِ الاشتقاقُ اللُّغويُّ؛ فإنَّ الميثاقَ مِنْ قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أحكمتُهُ[3].

وذكر الشَّوكانيّ فرقًا آخرَ بينَهما[4] لا يرجع إلى اللُّغةِ؛ وهو أنَّ العهدَ: جميع ما عَهِدَ اللهُ على العبادِ مِن الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ: ما أخذه الله تعالى على عبادِه حين أخرجَهُم مِنْ صُلْبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 172].

فاستعمال لفظ الميثاق في الآية بدلًا مِنَ العهد؛ لما في الميثاق من الدّلالةِ على التّوثيق والتّشديد؛ فهو عهدٌ مؤكّد ومُحْكَمٌ.

(1) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللُّغوية، ص: 525.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 206.
(3) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/ 304.
(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"